المحاضرة10:نشأة فن القصة وتطورها حديثا

أولا- نشأة القصة في الأدب الغربي وتطورها.

يتفق النقاد بأن فن القصة ظهر في بلدين متباعدين، وعلى أيدي اثنين من الكتاب الغربيين هما: إدجار ألن بو E.A.poe (1908م-1849م)* في أمريكا، وجو جول (1809م-1852) في روسيا، ثم جاء بعدهما موبا سان (1850م-1852م) في فرنسا، والذي يقول عنه الناقد "هولبروك جاكسان": "إن القصة القصيرة هي موباسان وموباسان هو القصة القصيرة".

ويختلط مفهوم (القصة) مع مفهوم (الرواية)... وقد عبر عنهما الناقد باسم جامع هو "فن القص" إلا أن دراستهما منفصلين لأغراض التأريخ والتطوير أمر لابد منه، وهو أمر صعب باعتراف النقاد، بل تختلط القصة إلى جانب الحكاية والمسرحية في دراسات النقاد المحدثين[i]، وفي أواخر القرن الثامن عشر تطور فن القصة في الآداب الغربية، وتفرعت عن قصص العادات والتقاليد، والقصص الاجتماعية، بعدما ظهرت قبلها قصص الرعاة وهي أقرب إلى الواقع في عصر النهضة، والتي ظهرت في الأدب الإيطالي ثم الاسباني ثم الفرنسي، وكذلك قصص الفروسية والحب وقصص الشطار في القرنين السادس والسابع العاشر، حيث ظهرت في اسبانيا، وهي ذات صيغة هجائية لاذعة للمجتمع.

وفي ظل الرومانسية نشأت القصة التاريخية وهدفها إحياء تاريخ الشعوب الوطني، وكان أب القصة التاريخية في أوروبا هو الكاتب الإنجليزي "ولتر سكوت"، وفي زمن الواقعية ازداد الفن القصصي تطورا، وأصبحت قواعدها الفنية ثابتة محكمة، وانقرض تقريبا عنصر الخيال من القصة، بفضل منظري الفلسفة الوضعية، والفلسفة التجريبية "أوجست كونت" و "جون ستيوارت ميل"، والاتجاه النقدي الواقعي "سانت بيف" و "تين"، وأهم قصص هذه المرحلة "الكوميديا" أو "الملهاة البشرية" لبلزاك، "ومدام بوفاري" لفلوبير إضافة إلى قصص "إميل زولا" و"ديكنز" و"تولستوي" و"همنجواي" و"مايا كوفسكي" ... وغيرهم.[ii]

والحقيقة أن الفن القصصي تأخر ظهوره في الآداب الغربية، وسبقته إلى الوجود الملحمة والمسرحية وكان مجردا من القواعد الفنية متحررا من قيود النقد الأدبي، ولذا تطورت تطورا سريعا في العصر الحديث وتصدرت الأجناس الأدبية الأخرى.

ثانيا- نشأة القصة في الأدب العربي وتطورها.

لم تكن القصة في الأدب العربي الحديث امتدادا للقصة العربية القديمة، بل كانت نتيجة احتكاكها وتأثرها بالقصص الغربي، وذلك إثر اتصال الشرق بالغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر، ولقد مرت بأربع مراحل حتى وصلت إلى أوج ازدهارها، وأهم هذه المراحل:

1- مرحلة الترجمة:

نشطت الترجمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد عودة البعثات العلمية والاختلاط الذي حصل مع الأوروبيين، ولحاجة الصحف والمجلات إلى مواد مشوقة، وسبق اللبنانيون غيرهم لاختلاطهم بالأوروبيين منهم كفرنسيس مراش الحلبي، حيث ترجم عددا من الروايات التمثيلية، ورواية "الفرسان الثلاثة"*، وفي نهاية القرن هاجر عدد من اللبنانيين إلى مصر واشتغلوا بالصحافة والترجمة، ومنهم نقولا رزق الله الذي التحق بجريدة الأهرام وترجم رواية "سقوط نابليون الثالث": في ألف صفحة، وطانيوس عبده الذي أنشأ مجلة "الراوي" وعرب الروايات المشهورة مثل "فوسست" و"الملكة ايزابو"، وترجم فرح أنطوان عدة روايات منها "الكوخ الهندي" و"بول فرجيني" و"أنا لا" وغيرها من الروايات.

وكانت القصص المترجمة أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو الزيادة أو التغيير مثل "غصن البان" لنجيب الحداد، "والفضيلة" و"مجدولين" و"سبيل التاج" للمنفلوطي، و"البؤساء" لحافظ إبراهيم[iii]، وكان رائد هذه المرحلة "رفاعة الطهطاوي" بترجمته لقصة "مغامرات تليماك" للكاتب الفرنسي "فنلون"، وقد أسماها "وقائع الأفلاك في حوادث تليماك"، وكان هدفه من الترجمة لما اشتملت عليه من معان حسنة «مما هو نصائح للملوك والحكام ومواعظ لتحسين سلوك الناس، تارة بالتصريح، وطورا بالتلميح»[iv].

كما ترجم "محمد عثمان جلال "قصة"بول وفرجيني" لبرناردين سان بيير، بعنوان "الأماني والمنة في حديث الجنة"، وأحمد زكي الذي ترجم قصة "مرغريت"، والمازني الذي ترجم "آلة الزمن"، وأحمد حسن الزيات الذي ترجم "آلام فارتر"... وغيرهم[v]، كل ذلك عندما دخل الجامعيون مجال الترجمة ونبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم، وثقافة الغرب فبلغوا بالقصص الفني منزلة رفيعة، يضاف إلى هذا تعدد المطابع لاسيما في لبنان ومصر ودمشق.

2- مرحلة المحاكاة والاقتباس:

يعد "محمد المويلحي" في كتابة "حديث عيسى بن هشام "أول من مثل هذه المرحلة وذلك لاطلاعه الواسع على الآداب الفرنسية، واعتزازه بعروبته، ولقد حاول إدخال القصة الغربية إلى الأدب العربي، وإن كانت قصته خاضعة لأسلوب المقامات، والتي نجدلها شبيها في"ليالي سطيح"لحافظ إبراهيم حيث ينتقد كثير من الظواهر الاجتماعية، ثم تطورت عملية الاقتباس شيئا فشيئا كما نقرأ ذلك في قصة "البؤساء" لحافظ إبراهيم، والتي نقلها عن رواية "les misérables" لفيكتور هيجو.

وتميزت قصص هذه المرحلة بكون روادها لم يهتموا بمطابقة قصصهم المترجمة للقصص الأصلية، وإنما ارتكزوا على إثارة عواطف القراء بلغة جد مشوقة، مع محافظة هذه القصص على سماتها الأوروبية[vi]، وما يسجل على قصص هذه المرحلة أيضا أنها كانت أقرب إلى فن المقامة في بداياتها، كما كانت مزيجا من

الخواطر والمشاعر بالسرد الوصفي، وتنوع قريب من الطابع الذاتي الذي يعالج الظواهر الاجتماعية، وبخاصة الاستغلال الطبقي.

3- مرحلة التأليف:

تميزت هذه المرحلة باستلهام القصص العربية القديمة، والتأليف على منوالها، وكان رائدها "سليمان البستاني"، الذي سلك النهج التاريخي في قصصه نحو قصة "زنوبيا" و"بدور"، وكذلك "جرجي زيدان" الذي ألف مجموعة من القصص والروايات متأثرا فيها بالكاتب الإنجليزي "ولتر سكوت" في اعتماده على التاريخ كمادة خام لحوادث قصصه نحو: فتاة غسان، عذراء قريش، الحجاج بن يوسف، فتح الأندلس... وغيرها، ولقد ألفت معظم القصص وفق خصائص المقامة وسمات ألف ليلة وليلة، وذلك بدوافع قومية.

وبعد الحرب العالمية الأولى تطور الفن القصصي متأثرا بالقصص الغربية الحديثة، بحيث أصبحت أكثر تماسكا، فظهرت في لبنان "كان يا ما كان" و"اللقاء" لميخائيل نعيمة، و"من أعماق الجيل" لصلاح لبكي "والصبي الأعرج" و"قميص الصوف" لتوفيق عواد، و"وجوه وحكايات" لمارون عبود، و"عشر قصص" لخليل تقي الدين، و"الأساطير الشرقية" الكرم البستاني، وقصص أخرى لكرم ملحم كرم وغيرهم.[vii]

والمسجل على قصص هذه الفترة أنها اتصفت بضعف التقنية الفنية، وكان يغلب عليها السرد والحوار وظهرت في مصر قصص ذات مضامين فكرية واجتماعية فيها دراية وعمق من خلال قراءتهم للقصص الواقعية الروسية لأدب جوجول وبوشكين وتولستوي وديستوفسكي وباتشيف ومكسيم غوركي...وغيرهم كما استفادوا من قصص أوروبية ذات توجهات أدبية وفلسفية وتعليمية[viii]، فظهرت قصص ذات خصائص فنية كـ"زينب" لمحمد حسين هيكل التي اعتبرت أول محاولة ناجحة بالمفهوم الفني الحديث للقصة، و"الأيام" لطه حسين، و"إبراهيم الكاتب" للمازني، و"سارة"للعقاد، و"أهل الكهف" لتوفيق الحكيم، و"بداية ونهاية" لنجيب محفوظ... وغيرها.

4- مرحلة النضج الفني:

بعد المراحل السابقة شقت القصة العربية الحديثة طريقها نحو التطور والتجديد، والرقي من النواحي الفنية فظهر كتاب مجيدون لهذا الفن ساهموا في ازدهار هذا الفن، الذي احتل موقعا راسخا بين أنواع الأدب الأخرى، بل كاد ينافس الشعر على مكانته وجمهوره،[ix] ومن الأسماء التي طورت فن القصة "يوسف إدريس عبد الرحمن الشرقاوي، نجيب محفوظ، الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، رشيد بوجدرة، كاتب ياسين... وغيرهم.